المنهج المقارن عند السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس) في نقد مسألة الإدراك

م.م. محمود عبد الحسين عبد علي الثعالبي

كلية التربية / جامعة ميسان

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على حبيب اله العالمين سيدنا ونبينا مخمد وعلى اله الطيبين الطاهرين ، يمثل الادراك اصل المعرفة البشرية وبدونه لا تكون هناك معرفة ، والمهم في الادراك من الناحية الفلسفية معرفة حقيقة الادراك وماهيته ، وتعتقد الفلسفة الاسلامية ان الادراك لون من الوجود وراء ظواهر المادة ، بينما تؤمن الماركسية ان الادراك (ظاهرة مادية) لايمكن فصلها عن المادة المفكرة ، والادراك ظاهرة تصل اليها المادة خلال تطورها وتكاملها ، وعليه كان بحثنا في مطلبين الاول مفهوم الادراك في المدرسة الماركسية وقد استعرضنا فيه نصوصاً لعدد من مفكري الماركسية حول عملية الادراك في الفهم الماركسي ، واوضحنا نقد الشهيد الصدر(قدس) لهذه الاراء وبيان فشلها، وفي المطلب الثاني تناولنا مفهوم الادراك في المدرسة الاسلامية واراء الفلاسفة المسلمين ومنهم الشهيد الصدر (قدس) في عملية حصول الادراك البشري ،ومن الله التوفيق والسداد.

ونسأل الله التوفيق والسداد .

الإدراك

يمثل الإدراك أصل المعرفة البشرية وبدونه لا تكون هناك معرفة، والمهم في الإدراك من الناحية الفلسفية معرفة حقيقة الإدراك وماهيته، تؤمن الفلسفة الإسلامية إن الإدراك لون من الوجود وراء ظواهر المادة، بينما تؤمن الماركسية إن الإدراك (ظاهرة مادية) لا يمكن فصلها عن المادة المفكرة، والإدراك ظاهر تصل إليها المادة خلال تطورها وتكاملها، لذا سيكون تقسيم هذا البحث إلى مطلبين:

- المطلب الأول: المدرسة الإسلامية.
- المطلب الثاني: المدرسة الماركسية.

المطلب الأول

المدرسة الإسلامية

لابد قبل كل شيء أن نعرف (الإدراك) لغة واصطلاحاً.

الإدراك لغة: من درك يدرك والإدراك: اللحوق، وتدارك القوم، أي لحق آخرهم أولهم ومنه قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً﴾[١]، وأصله تداركوا فأدغمت التاء في الدال واجتلبت الألف ليسلم السكون، واستدرك الشيء بالشيء: حاول إدراكه به، وقوله تعالى ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾[٢]، قال السدي في تفسيره: اجتمع علمهم في الآخرة ومعناها عنده أي علموا في الآخرة أن الذي كانوا يوعدون به حق، وأدرك: بلغ علمه أقصى الشيء، ومنه المدركات الخمس، والمدارك الخمس: يعني الحواس الخمس[٣].

---

(١) سورة الأعراف: جزء من الآية/ ٣٨.
(٢) سورة النمل: جزء من الآية/ ٦٦.
(٣) ينظر: الصحاح: للجوهري (ت ٣٩٣هـ)، ج/٤، ص١٥٨٣ مادة (درك)، لسان العرب: لابن منظور (ت ٧١١هـ)، ج/١٠، ص٤١٩ – ٤٢٢ مادة (درك)، مختار الصحاح: للرازي (ت ٧٢١هـ)، ص١١٣، مادة (د ر ك)، تاج العروس: للزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، ج/١٣، ص٥٥٢ – ٥٥٦ مادة (درك).

أما اصطلاحاً: ويعرّفه "ابن سينا" بأنه ((إدراك الشيء هو أن تكون حقيقته متمثلة عند المدرِك))[١]، وكذلك عرّفه الغزالي بتعريف مشابه لتعريف ابن سينا بصيغة مختلفة[٢]، وعرّفه الشيخ "المظفر" بأنه ((حضور صورة الشيء عند العقل))[٣].

ولما كان صور الأشياء المتمثلة عند المدرِك لها وجودين أما أن يكون لها وجود مادي محسوس أو وجود مجرد عن المادة تدرك بالعقل تبعاً لذلك قسّم "ابن رشد" الإدراك إلى قسمين، الأول – الإدراك الحسي – وهو إدراك لصور ((أجسام قائمة بذاتها مشار إليها وأعراض مشار إليها في تلك الأجسام))[٤].

والثاني – الإدراك العقلي – وهو إدراك ((ماهيات تلك الأمور المحسوسة وطبائعها، أي الجواهر والأعراض))[٥].

ويقسّم "ابن سينا" هذه الصورة الحاصلة في الذهن عن طريق الإدراك إلى قسمين –

الأول– إذا كانت هذه الصور الذهنية المتمثلة لحقيقة الشيء خالية من الحكم سميت تصوراً.

والثاني : إذا كان هذا التصور مصحوباً بحكم سمي تصديقاً[٦].

وقسّم الشهيد محمد باقر الصدر الإدراك إلى قسمين تصور وتصديق[٧].

ويبين "الرازي" إن الإدراكات الإنسانية تمر بمراحل ثلاث: الأول – الحس المشترك وهو الذي تتجمع فيه صور الأشياء عن طريق الحواس الخمس، تم بعد زوال الإدراك الحسي فيتخلف عنه أثراً في الذهن يسمى الخيال أو (الحافظة) وهذه المرحلة الثانية ويمثل خزانة هذا الأثر المتبقي في الذهن، ثم المرحلة الثالثة – وهي القوة المتصرفة (القوة المفكرة) والتي تقوم بتركيب وتحليل هذه الصورة الجزئية (الخيال) للوصول إلى معنى كلي بواسطة هذه القوة الباطنة، فيقول: ((القوى الباطنة أما مدركة، وأما متصرفة، أما المدركة، فأما أن تكون مدركة

---

(١) المعجم الفلسفي: جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، (د. ط)، ١٩٨٢م، ج١، ص٥٣.
(٢) ينظر: تهافت الفلاسفة، ص٢٠٩.
(٣) المنطق: ص١٣.
(٤) النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد: د. عاطف العراقي، سلسلة العقل والتجديد، الكتاب الخامس، مطبعة المعارف/ القاهرة، ط٤، ١٩٨٤م، ص١٠١.
(٥) النزعة العقلية عند ابن رشد: ص١٠١.
(٦) ينظر: الشفاء: ص١٧.
(٧) ينظر: فلسفتنا: ص٥١.

لصور المحسوسات، وهي القوى التي تتجمع فيها صور الحواس الخمسة وهي المسماة بالحس المشترك.. فخزانة الحس المشترك هو الخيال.. وأما المتصرفة فهي القوة التي تتصرف في هذه الصور الجزئية، والمعاني الجزئية بالتركيب تارة ولتحليل أخرى، وهي المسماة بالقوة المفكرة))[١].

والإدراك العقلي في نظر الفلاسفة المسلمين وكما بيّنا في المبحث السابق (قيمة المعرفة) هو إدراك مطابق للواقع الموضوعي ولا يعني هذا انه (صورة مادية) منسوخة عن واقعه الخارجي بل هو (صورة لامادية) عن واقع مادي.

ويبين ذلك "ابن رشد" متمثلاً بصورة الحجر، فيقول: ((إن الحجر له صورة جمادية، وهي في الهيولى خارج النفس، كما انه له صورة تعد إدراكاً وعقلاً وهي مجردة من الهيولى في النفس))[٢]، ومن ثم فان الإدراك العقلي للأشياء هو صورة مجردة من الهيولى (المادة)، فيقول: ((العقل ليس شيئاً غير إدراك صور الموجودات من حيث هي في غير الهيولى))[٣].

وقد بيّنا في بحث قيمة المعرفة، إن الفلسفة الإسلامية تعتقد بمطابقة الإدراك للواقع الخارجي ولكن ليس كما تؤمن الماركسية بآلية الفكر في إدراك الواقع الموضوعي القائمة على الفعل المنعكس الشرطي والمنبهات الشرطية الخارجية، ولا تعتقد بتطور الإدراك طبقاً للظروف الخارجية كما تعتقد الماركسية بذلك.

ويبين الشهيد الصدر الفرق في حقيقة الإدراك بين المدرستين، فيقول: ((ونحن نختلف عن الماركسية في كلا الرأيين، ولا نقر الآلية في الإدراك البشري، فليست الأفكار والإدراكات مجرد ردود فعل منعكسة، عن المحيط الخارجي، كما تدعي السلوكية، وليست أيضاً حصيلة تلك الردود المحدودة من قبلها، والمتطورة يتبعها كما تعتقد الماركسية))[٤].

المطلب الثاني

المدرسة الماركسية

---

(١) كتاب النفس والروح وشرح قواهما: لفخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: محمد صغير حسن المعصومي، مطبوعات معهد الأبحاث الإسلامية/ باكستان، (د. ت)، ص٧٧.
(٢) النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد: ص١٠١.
(٣) النزعة العقلية عند ابن رشد: ص١٠١..
(٤) فلسفتنا: ص٣٤٢.

تؤمن الماركسية بأن الإدراك ظاهرة مادية وهو نتاج التطور التاريخي للمادة وبلوغها مرحلة الكمال، وترى ان شعور الفرد وإحساسه يتأثر بالظروف المحيطة به ويتطور تبعاً لها، ولبيان مناقشة الشهيد الصدر لهذه الآراء ونقده لها بشكل بيّن، ارتأينا تقسيم هذا المطلب إلى فرعين هما:

- الفرع الأول: مادية الإدراك.
- الفرع الثاني: تطور الإدراك.

الفرع الأول: مادية الإدراك

وبما أن الماركسية تعتقد أن الإدراك ظاهرة مادية وأن المادة تتغير وتتطور، وتبعاً لذلك يؤكد "ماركس" على عدم إمكان فصل الإدراك عن مادته، فيقول: ((لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة، لأن هذه المادة هي أساس جميع التغيرات التي تحدث))[١]، ويبيّن "ستالين" ما ذهب إليه "ماركس" من عدم الإمكان، لأن وعاء الفكر والإدراك هو عضو مادي، فيقول: ((والدماغ هو عضو الفكر، ولهذا لا يمكن فصل الفكر عن المادة وإلا ارتكبنا خطأ جسيماً))[٢].

ويرى "بوليتزر" أن نقص نمو الدماغ يكون عائقاً أمام تطور إدراك الفكر، لأن الوعي هو نتاج تطور المادة وتكاملها ويتمثل هذا التطور في الجهاز العصبي للفرد وخصوصاً الدماغ، فيقول: ((تدل العلوم الطبيعية على أن عدم اكتمال نمو الدماغ عند شخص من الأشخاص يكون عائقاً مهماً أمام نمو الوعي والفكر: ذلك هو شأن الأغبياء، لأن الفكر نتاج تاريخي لتطور الطبيعة وبلوغها درجة سامية من الكمال يتمثل في الأنواع الحية في الأعضاء والحواس والجهاز العصبي ولاسيما في جزئه الأعلى المركزي الذي يسيطر على الجسم بأكمله ألا وهو الدماغ))[٣]، ويرى "غارودي" إن أدلة مادية الفكر والإدراك أجدر بالإقناع من غيرها، فيقول: ((إن التكون المادي للفكر يعرض علينا، كما سوف نرى، حججاً أجدر بالتصديق والاقتناع بها))[٤].

---

(١) أصول الفلسفة الماركسية: ص١٨٥.
(٢) اصول الفلسفة الماركسية: ج١، ص١٧٨.
(٣) المصدر نفسه: ج١، ص١٨٦.
(٤) النظرية المادية في المعرفة: ص٤٤.

بيّن الشهيد الصدر أن النظريات العلمية في (الفيزياء والكيمياء والفيزيولوجيا والبحوث النفسية) لا تستطيع بوسائلها العلمية وأساليبها التجريبية أن تفسر حقيقة الإدراك فلسفياً ولا تستطيع أن تبرهن على مادية الإدراك، ومن أراد الإطلاع على هذا البيان بشكل مفصل[١].

وعلى ضوء بيان الشهيد الصدر عن عدم تمكن العلوم الطبيعية والبحوث النفسية من البرهنة على مادية الإدراك، انتقد اتهام الماركسية للميتافيزيقية بأن مفهومها الفلسفي للإدراك يتعارض مع المفهوم العلمي، ومحاولتها البرهنة فلسفياً على مادية الإدراك بأدلة العلوم الطبيعية، فيقول: ((قام الزعم المادي القائل بأن الإدراك في مفهومه الفلسفي لدى الميتافيزيقية، يتعارض مع الإدراك في مفاهيمه العلمية، فقد رأينا كيف يحاول بوليتزر أن يبرهن على مادية الإدراك من ناحية فلسفية بدلائل العلوم الطبيعية وقد قام غيره بنفس محاولته، ولذلك نجد لزاماً علينا أن نحدد الموقف الفلسفي في المسألة، لنقضي على المحاولات الرامية إلى الخلط، بين المجال الفلسفي والعلمي، ولى اتهام التفسير الميتافيزيقي للإدراك، بمجافاة العلم ومنافاته لحقائقه ومقرراته))[٢].

انتقد الشهيد الصدر (قدس) المفهوم المادي للإدراك باختيار (الصورة المبصرة) كنموذج عن الإدراك العقلي لأنه هو المتنازع عليه بين المدرستين، أما الإدراك الحسي فأنه غير مختلف عليه(١)، ويبين أن الإدراك العقلي للصورة المبصرة للمفهوم الفلسفي الإسلامي يرتكز على:

أولاً : الخصائص الهندسية للصورة المبصرة.

ثانياً : ظاهرة الثبات في عمليات الإدراك البصري.

أولاً: الخصائص الهندسية، يتمثل الشهيد الصدر بزيارتنا لحديقة طولها آلاف الأمتار وإلقاء نظرة عليها، فإنها تحتوي على الخصائص الهندسية من طول وعرض وعمق وتبدو بمختلف الأشكال والحجوم ومن نظرنا لها سندرك الحديقة كلاً متماسكاً، بما فيها من نخيل وأشجار، وطيور، وبركة ماء وغيرها، وهنا يطرح الشهيد الصدر ثلاثة احتمالات لهذه الصورة المدركة:

الأول: هل هذه الصورة هي نفس الحديقة وواقعها الموضوعي بالذات؟

الثاني: هل هي صورة مادية تقوم بعضو مادي خاص في جهازنا العصبي؟

---

(١) ينظر: فلسفتنا، ص٣٢٢ – ٣٢٨.
(٢) فلسفتنا: ص٣٢١.

الثالث: هل هي صورة مجردة عن المادة، تماثل الواقع الموضوعي وتحكي عنه؟[١]

اما الاحتمال الأول: يجيب الشهيد الصدر إن النظرية القديمة في الرؤية والتي تفترض أن إدراك الواقع الموضوعي للأشياء يكون بخروج شعاع خاص من العين ووقوعه على الشيء المرئي، وهذه النظرية ساقطة من ناحيتين:

الأولى – فلسفية – وهي إن خداع الحواس يجعلنا ندرك صوراً معينة على أشكال لا واقع لها، يثبت أن الصورة المدركة لا واقع لها وإلا ما هو الواقع الموضوعي المدرك في الصور الحسية الخداعة؟

والثانية – علمية – إذ أثبت العلم أن الأشعة الضوئية تنعكس من المرئيات على العين وليس العكس، وإنا لا نملك من الأشياء المرئية إلا الأشعة المنعكسة على العين، وأثبت أن رؤيتنا للشيء قد تحدث عند انعدام ذلك الشيء بسنين فنحن نرى الشعرى في السماء مثلاً ومن الجائز أن تكون الشعرى قد انعدمت من السماء قبل رؤيتنا لها بسنين طويلة وهذا يبرهن علمياً على أن الصورة التي نحس بها الآن ليست هي الشعرى أي الواقع الموضوعي للنجم[٢].

الاحتمال الثاني – فانه ساقط ومستبعد نهائياً، لأن انطباع الكبير (الشيء) في الصغير (المخ) مستحيل، فيقول: ((الصورة المدركة بحجمها وخصائصها الهندسية، وامتدادها طولاً وعرضاً، لا يمكن أن توجد في عضو مادي صغير، كذلك لا يمكن أن نأخذ عنها صورة عقلية، أو إدراكية تحاكيها في سعتها، وشكلها، وخصائصها الهندسية، على جزء ضئيل من المخ، لأن انطباع الكبير في الصغير مستحيل))[٣].

أما الاحتمال الثالث – وهو الافتراض الصحيح الذي يأخذ به الشهيد الصدر، ويمثل المفهوم الميتافيزيقي للإدراك، فيقول: ((إن الصورة المدركة التي هي المحتوى الحقيقي للعملية العقلية، صورة ميتافيزيقية، موجودة وجوداً مجرداً عن المادة، وهذا هو كل ما يعنيه المفهوم الفلسفي الميتافيزيقي للإدراك))[٤].

ثانياً: ظاهرة الثبات – وهي إن الصورة العقلية المدركة تميل إلى الثبات، ولا تتغير طبقاً لتغيرات الصورة المنعكسة على الجهاز العصبي، فإذا وضعنا قلم على بعد متر انعكست عنه صورة خاصة، وإذا نظرنا إليه على

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ص٣٢٨.
(٢) ينظر: فلسفتنا، ص٣٢٨ – ٣٢٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٣٠.
(٤) فلسفتنا: ص٣٣٠.

بعد مترين فان صوره التي يعكسها ستقل إلى نصف ما كانت عليه في الحالة الأولى، مع إن إدراكنا لحجم القلم لن يتغير تغيراً يذكر، يعني أن الصورة العقلية للقلم التي نبصرها، تبقى ثابتة، رغم تغير الصورة المادية المنعكسة، مما يبرهن على أن العقل والإدراك ليس مادياً وان الصورة المدركة ميتافيزيقية، وعليه فالنتيجة الفلسفية التي نحصل عليها هي إن الإدراك ليس مادياً، كما تزعم الفلسفة المادية(١).

وبالتالي نصل إلى نتيجة مهمة إذا كان الإدراك لامادياً، وليس حالة منعكسة في عضو مادي، فأين يحدث هذا النشاط الفكري (الإدراك)؟ ويجيب الشهيد الصدر على ذلك، قائلاً: ((إن للإنسان جانبين أحدهما مادي يتمثل في تركيبه العضوي، والآخر روحي – لامادي – وهو مسرح النشاط الفكري والعقلي))(٢).

الفرع الثاني: تطور الإدراك

تعتقد الماركسية أن وعي الإنسان وإدراكه يتطور تبعاً لظروف المحيط الخارجي، ومن ثم يزداد دماغ الإنسان بعلاقات إضافية، بل يرى "أنجلز" أن لا فكر ولا لغة بدون النشاط الاجتماعي والعمل، فيقول: ((العمل إذن هو الذي أثار الحاجة للاتصال فتولد عن ذلك اللغة.. ويزداد في نفس الوقت، غنى دماغ الإنسان بعلاقات جديدة، لأن الدماغ نتاج اجتماعي.. فلا لغة ولا فكر بدون العمل الذي هو نشاط اجتماعي))(٣).

ويرى "بوليتزر" أن العالم الفسيولوجي "بافلوف" أثبت إن إدراك الإنسان ووعيه يحدده المجتمع الذي يعيش فيه وليس جسم الإنسان، لأن ظروف المحيط الخارجي هي من يحدد حياته الفكرية، فيقول: ((لقد برهن بافلوف في الوقت ذاته على أن ما يحدد وعي الإنسان في الأساس ليس هو جسده.. بل المجتمع الذي يعيش فيه ومعرفته لهذا المجتمع.. لأن الظروف الاجتماعية للحياة هي التي تحدد الحياة العضوية والحياة الذهنية))(٤).

ويرى "ستالين" أن الفكر أو الوعي لا يمكن أن يسبق اللغة في وجوده، فلا يوجد إلا على أثرها فهي أداته وواقعه المباشر، فيقول: ((يقولون أن الأفكار تأتي إلى ذهن الإنسان قبل أن يعبّر عنها في حديثه وإنها تولد بدون واسطة اللغة عارية عن غطاء اللغة، ولكن مهما كانت الأفكار التي ترد على ذهن الإنسان فهي لا يمكن أن تولد وتوجد إلا معتمدة على اللغة وألفاظها.. لأن اللغة هي واقع الفكر المباشر))(٥).

---

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص٣٣٢ – ٣٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٤.
(٣) أصول الفلسفة الماركسية: ج١، ص١٨٧.
(٤) أصول الفلسفة الماركسية: ج١، ص١٨٧ – ١٨٨.
(٥) المصدر نفسه: ج١، ص١٨٨.

ومن النصوص المتقدمة يتضح أن الماركسية أقامت على نظرية "بافلوف" في (الاقتران الشرطي)، تطور الفكر والوعي تبعاً للمنبهات الخارجية (الظروف المحيطة) وكذلك اعتبار اللغة (المنبه الشرطي) في وجود الفكر، فكان لزاماً أن نعرف (الفعل المنعكس الشرطي) الذي اكتشفه "بافلوف" (١٨٤٩ – ١٩٣٩م) على ضوء تجاربه التي أجراها على الكلب لإثارة لعابه، وهنا لاحظ سيلان الكلب لمجرد رؤية الطعام قبل تقديمه له، فكرر التجربة عدة مرات مقترنة بمنبه شرطي (صوت الجرس)، فلاحظ سيلان لعاب الكلب لمجرد سماعه صوت الجرس (المنبه الشرطي).

ويعرف الفعل المنعكس الشرطي بأنه ((إثارة خارجية لمنعكس غير شرطي، تأخذ ظرفاً معيناً محدد، متطابقاً مع زمن وتشكل اتصالاً مؤقتاً مع ظواهر غير معدودة من الوسط المحيط))[١]، ويبيّن "بافلوف" أن الأفعال المنعكسة الشرطية هي عناصر تكيف الفرد مع محيطه وإنها لابد منها، فيقول: ((إن المنعكسات هي عناصر التكيف المتواصل أو التوازن.. وهي أفعال لابد ولا مفر منها حيث هي رد الفعل الآلي للكائن، وهي في نفس الوقت مولودة معه))[٢].

وأخذت المدرسة السلوكية الأمريكية بزعامة "واطسون" (١٨٣٢ – ١٩٢٥م) التي تفسر سلوك الكائن الحي على أساس علم النفس الفسلجي، الفعل المنعكس الشرطي وفسرت به كل الحياة العقلية للإنسان من (إدراك، وتفكير، واللغة، وغيرها) على أنها ردود فعل فيزيولوجية لمنبهات شرطية، وصيرت الفعل المنعكس الشرطي من طرقها الأساسية والنمط الرئيسي لتفسير السلوك، ويبين لنا "ج، ل، فولوجل" ذلك، فيقول: ((أصبحت المنعكسات الشرطية تدريجياً واحدة من الطرق الرئيسية والمفاهيم الإجرائية السلوكية.. وفي الحقيقة إن الكثير من السلوكيين يعتبرون المنعكسات الشرطية النمط الذي يكتسب على أساسه كل مقومات السلوك))[٣].

واعتمدت الماركسية على تفسير السلوكية للحياة العقلية، واعتبرت الإدراك والشعور واللغة وغيره، ردود فعل فيزيولوجية، لمنبهات شرطية كما ورد سابقاً على لسان "بوليتزر" و"أنجلز".

وانتقد الشهيد الصدر التفسير السلوكي لحقيقة الإدراك على أنه فعل منعكس شرطي، يتطور تبعاً للظروف المحيطة (المنبهات الخارجية) من نواحي ثلاث:

---

(١) بافلوف (أبحاثه في الجهاز العصبي.. وظواهر أخرى): ص٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٤٧.
(٣) علم النفس في مائة عام: ص١٨٠.

الأولى: فلسفية – وتكون من جانبين:

أ- لا يمكن الجزم أن حقيقة الإدراك هو رد فعل فيزيولوجي لمنبه شرطي، مادام هناك تفسير آخر لحقيقة الإدراك وراء حدود التجربة، وهو التفسير الميتافيزيقي الذي تقول به الفلسفة الإسلامية، فيقول: ((إن التجارب الفيزيولوجية على المنعكس الشرطي، لا يمكنها أن تبرهن على أن الفعل المنعكس، هو حقيقة الإدراك، والمحتوى الحقيقي للعمليات، مادام من الجائز أن يكون للإدراك حقيقة وراء حدود التجربة))[١].

ب- تفسير السلوكية للحياة العقلية على أنها ردود فعل فيزيولوجية لمنبهات شرطية، يقضي على الفكرة السلوكية نفسها، وبالتالي على القيمة الموضوعية، للإدراك والفعل المنعكس الشرطي وسائر الأفكار، فيقول: ((فالمعرفة – كل المعرفة – لا تعدو وفقاً للتفسير السلوكي أن تكون استجابة حتمية لمنبه شرطي كسيلان اللعاب من فم الكلب في تجارب بافلوف، وليست نتيجة للاستدلال والبرهان، وبالتالي تصبح كل معرفة تعبيراً عن وجود منبه شرطي لها لا عن وجود مضمونها في الواقع الخارجي، والفكرة السلوكية نفسها لا تشذ عن هذه القاعدة العامة ولا تختلف عن كل الأفكار الأخرى في تأثرها بالتفسير السلوكي وسقوط قيمتها وعدم إمكان دراستها بأي لون من الألوان))[٢].

الثانية: علمية

أشار (قدس) إلى التجارب العلمية للمدرسة الجشتالية في علم النفس التي برهنت على عدم قدرة المدرسة السلوكية في بيان حقيقة الإدراك على أساس سلوكي بحت، فيقول: ((برهنت هذه التجارب على أن من المستحيل أن نفسر حقائق الإدراك.. بوصفها مجرد استجابات للمنبهات المادية التي يتلقى الدماغ رسائلها في صورة عدد من الدوافع العصبية المتفرقة.. فكيف أتيح لنا أن ندرك نظام العلاقات بين الأشياء وكيف أتيح للإدراك أن ينصب أولاً على الكل فلا ندرك الأشياء ضمن كل مترابط بدلاً عن إدراك الأشياء متفرقة كما تنتقل إلى الدماغ.. لو لم يكن هناك دور إيجابي فعال للعقل وراء الانفعالات والحالات الجسمية المجزأة))[٣]، ومن أراد معرفة المزيد عن تجارب الجشتالت في هذا المجال[٤].

الثالثة: وجدانية

---

(١) فلسفتنا: ص٣٣٨.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٣٨ – ٣٣٩.
(٣) فلسفتنا: ص٣٣٩ – ٣٤٠.
(٤) ينظر: الجشتالت: جيروم، ص٧١ – ١٥٠.

ويضرب (قدس) مثالين من الحياة البشرية، يكفينا واحد منهما لبيان هذا الدليل الوجداني، إن الإدراك ليس رد فعل فيزيولوجي وليد منبهات شرطية خارجية، بقدر ما هو نشاط إيجابي فعال للنفس البشرية، فيقول: ((تخرج من البيت وقد وضعت رسالة في حقيبتك، عازماً على وضعها في صندوق البريد، وأنت تتجه نحو المدرسة، فتصادف في طريقك صندوقاً للبريد، فتدرك فوراً أن الكتاب لابد من وضعه فيه، فتضعه فيه، ثم قد تمر بعد ذلك على عدة صناديق للبريد، فلا تسترعي انتباهك مطلقاً، فما هو المنبه المثير لإدراكك عند رؤية أول صندوق للبريد؟! وقد تقول إن المثير هو رؤية الصندوق نفسه، باعتبار أنك شرطته بالمنبه الطبيعي، فهو منبه شرطي ولكن كيف تفسر غفلتنا عن الصناديق الأخرى؟! ولماذا زال الإشراط فوراً بمجرد قضاء حاجتنا؟!))[١].

ويرى الباحث "عمار أبو رغيف" أن الشهيد الصدر رغم إشارته إلى "بافلوف" وعلم النفس الفسلجي، إلا انه اقتصر في معالجة المدرسة السلوكية الأمريكية بزعامة "واطسون"، وانه عمم المثالية والنسبية على علم النفس الفسلجي، ويمكن الجواب على ما يراه السيد "أبو رغيف" من وجهتين:

الأولى: يمكن القول أن المدرسة السلوكية الأمريكية تُعتبر الممثل الرئيسي (للفعل المنعكس الشرطي) "لبافلوف"، بعد أن أصبح طريقتها ونمطها في كشف السلوك وفسرت به كل مظاهر الحياة العقلية للإنسان، وقد أشار (قدس) إلى ذلك قائلاً: ((وقد استغلته السلوكية فزعمت أن الحياة العقلية لا تعدو أن تكون عبارة عن أفعال منعكسة))[٢]، ونقده (قدس) تفسير السلوكية للإدراك والحياة العقلية على أساس (الفعل المنعكس الشرطي)، هو نقد لكليهما في آنٍ واحد.

الثانية: إيمان المدرسة الفيزيولوجية أن طبيعة الجهاز العصبي هي التي تبلور كيفية الإحساس بالواقع الخارجي، وان دور الأشياء الخارجية هو مجرد إثارة العمليات الحسية فقط، فهذا يعني نفي الواقع الموضوعي وهذه هي المثالية الصريحة، وبما إنها ترى الإحساس هو رمز عن الشيء الخارجي (المنبه) وكيفية ونوعية هذا الرمز يحددها طبيعة الجهاز العصبي وليس الشيء الخارجي، فأن كل المعارف تكون حقائق نسبية اقتضتها طبيعة إحساسنا وجهازنا العصبي الخاص، وهذه هي النسبية الذاتية.

كما يرى الباحث "عمار أبو رغيف" أن الشهيد الصدر عالج موضوع الإدراك البشري في خاتمة الكتاب بعد معالجة مشكلة العالم والوجود[٣]، ويتفق الباحث مع السيد "أبو رغيف" في إن منهج البحث في المعرفة البشرية تقتضي من الشهيد الصدر (قدس) أن يجعله مقدمة بحثه للمعرفة البشرية حيث ابتدأ بحث المعرفة قائلاً:

---

(١) فلسفتنا: ص٣٤٢.
(٢) فلسفتنا: ص٣٣٨.
(٣) ينظر: نظرية المعرفة بين الشهيدين مطهري والصدر: ص٣٧.

((إن الإدراك ينقسم بصورة رئيسية إلى نوعين))[١]، وفصّل البحث في نوعي الإدراك تاركاً البحث في الإدراك في خاتمة الكتاب.

ويلاحظ على ما تقدم غياب النصوص المبينة (للفعل المنعكس الشرطي) "لبافلوف"، وكذلك عن (المدرسة السلوكية) التي يتضح فيها تفسير السلوكية للحياة العقلية على أساس (المنعكس الشرطي)، وإنما اعتمد (قدس) على الأفكار العامة، أما نصوص الماركسية فكانت بتوثيق ناقص (عنوان الكتاب ورقم الصفحة فقط) [٢]، كما يلاحظ على الدليل العلمي الذي اعتمده (قدس) في نقد السلوكية لقوله: ((ويمكننا أن نبرهن علمياً على عدم كفاية التفسير السلوكي.. عن طريق التجارب التي قام على أساسها مذهب الجشتالت))[٣]، فأنه لا يمثل وجهة نقده الخاصة وإنما وجهة نقد الجشتالت للمدرسة السلوكية.

خلاصة البحث

وبعد هذا الشوط انتهى الباحث من النتائج ، نختم بها هذا البحث ويمكن تلخيصها بالنقاط التالية :

اولاً : اعتمادالشهيد الصدر(قدس)على الافكار العامة ، فلا أثر للنصوص المبينة في طرح الاراء الماركسية ومناقشتها ونقدها .

ثانياً: الدليل العلمي الذي عقده الشهيد الصدر (قدس) في نقد المدرسة السلوكية لا يمثل وجهة نقده الخاصة ، وانما يمثل وجهة نقد المدرسة الجشتاليته للنظرية السلوكية .

---

(١) فلسفتنا: ص٥١.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٣١٩ – ٣٢٠، ٣٤١.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٣٩.

ثالثاً : يوافق الباحث السيد(عمار ابو رغيف) في ان الشهيد الصدر (قدس) عالج مبحث الادراك في خاتمة كتاب (فلسفتنا) في حين منهج البحث في المعرفة البشرية يقتضي ان يجعله في مقدمة بحثه للمعرفة البشرية .

المصادر والمراجع:

١. اسس الفلسفة و المذهب الواقعي : محمد حسين الطبطبائي ، تعليق : مرتضى مطهري ، تعريب : محمد الخاقاني ، دار التعارف للمطبوعات / بيروت ،ط /٢ ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٤ م.

٣اصول الفلسفة الماركسية : جورج بوليترز ورفيقاه ، تعريب : شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا / بيروت ، (د . ت) .

٢. البرهان : لابي نصر الفارابي (٢٦٠ هـ – ٣٣٩ هـ) ، تحقيق : ماجد فخري ، مطبعة دار الشروق / بيروت (د.ت) .

٣. تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم ، الناشر شركة كلمات عربية للترجمة و النشر، (د . ت) .

٤. التجريبية و الذاتية وفقا لهيوم : جيل دولوز ، تعريب : اسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر / بيروت ، ط /١ ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م .

٥. رسائل ابن رشد (تلخيص كتاب النفس) لابن رشد (٥٢٠ هـ – ٥٩٥ هـ) ، تحقيق : د . فؤاد الاهواتي ، مطبعة النهضة المصرية ، ١٩٥٠م .

٦. شرح البرهان لارسطو (تلخيص كتاب البرهان) : لابن رشد ، تحقيق وشرح وتقديم : د . عبدالرحمن بدوي ، قسم التراث العربي / الكويت ، ط / ١ ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤ م .

٧. الشفاء : لابي علي الحسين بن عبدالله بن سينا (٣٧٠ هـ – ٤٢٨ هـ) ، مراجعة: د . ابراهيم مدكور ، تحقيق لاب قنواتي وآخرون ، نشر وزارة المعارف المصرية ، المطبعة الاميرية/ القاهرة ،١٣٧١ هـ – ١٩٥٢ م .

٨. الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم : د. مصطفى ابراهيم ، مكتبة الاسكندرية / القاهرة ، (د . ط) ، ١٩٩٩ م .

٩. فلسفتنا : محمد باقر الصدر ، مطبعة السرور ،الناشر : دار الكتاب الاسلامي ط ٢، ١٤٢٣ ، ٢٠٠٢ م .

١٠. في سبيل موسوعة فلسفية / ١ (الفارابي) : د . مصطفى غالب ، منشورات دار مكتبة الهلال / بيروت (د .ط) ، ١٩٩٨ م .

١١. في سبيل موسوعة فلسفية / ٣ (ابن سينا) : د . مصطفى غالب ، منشورات دار مكتبة الهلال / بيروت (د .ط) ، ١٩٩٨ م .

١٢. قصة الفلسفة من افلاطون الى جون دبوي : وال ديورانت ، ترجمة فتح الله محمد المشعشع ، منشورات مكتبة المعارف ، بيروت ، ط/٢ ، ١٩٨٦ م .
١٣. كتاب الجمع بين رأي الحكمين: لابي نصر الفارابي (٢٩٠ هـ – ٣٣٩ هـ) ، قدم له وعلق : د. البير نصري نادر ، دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية) /بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٦ م .
١٤. لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية : فاسيلي كوزنيتشوف، ترجمة : الياس شاهين ، دار التقدم / موسكو ، ١٩٨٧ م .
١٥. محاظرات الفلسفة الاسلامية (نظرية المعرفة في ثوب جديد) : محمد محمد الحاج حسن الكمالي ، مؤسسة الفاو للنشر و التوزيع ، ط /١ ، ١٩٩١ م .
١٦. المعجم الفلسفي : د . جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
١٧. المنطق : محمد رضا المظفر ، مطبعة امير / منشورات الفيروز ابادي / قم ، ط/١، ١٤٢١ هـ .
١٨. موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب : جيرار جيهامي، مكتبة لبنان، ناشرون/ بيروت ، (د . ت) .
١٩. موسوعة مصطلحات جامع العلوم : عبدالنبي عبدالرسول ، مكتبة لبنان ناشرون/ بيروت ،ط/١ – ١٩٩٧م.
٢٠. المؤلفات المختارة: ماوتسي تونغ، ترجمة : د.فؤاد عرب ، دار دمشق للطباعة، ط /٢ ، ١٩٦٥ م .
٢١. نظرية المعرفة بين الشهيدين مطهري و الصدر: عمار ابو رغيف ، الناشر مركز رعاية الدراسات الجادة / ايران،(د.ت).